الإتقان ليس ترفًا.. بل شرطًا للبقاء

حين يقتربُ الخطأُ من الصِّفرِ

ليست الموارد المتاحة، ولا المال، ولا النجاح العابر، ولا حتى العبقرية الفطرية هي الفاصل.

الفاصل: قرار. نعم، القرار.

لحظةٌ يتخذ فيها إنسانٌ — بتوفيق الله تعالى أولًا — قرارًا واحدًا: أن يقترب خطؤه من الصفر.

وهذا القرار لم يبقَ فكرةً ذهنية، ولا شعارًا تحفيزيًّا، بل تجسّد في نماذج واقعية غيّرت قوانين الصناعة والعلم والحرب، وأثبتت أن الإتقان حين يُمارَس يتحوّل إلى قوةٍ تقلب موازين العالم.

ومن تأمّل الإتقان الإلهي قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، سعى جاهدًا إلى ما يحبه الله تعالى من الإتقان.

حين يتحول القرار إلى إنجاز

- **فوياجر (Voyager).. الإتقان الذي تجاوز حدود الكواكب:**

عام ١٩٧٧، أطلقت ناسا (NASA) فوياجر ١ و٢ (Voyager 1 & 2) في مهمة مخططة لخمس سنوات. أرسلتا أكثر من ٦٠ ألف صورة، وبعد ٤٧ عامًا ما زالتا تبثان بيانات علمية دقيقة من أكثر من ٢٠ مليار كيلومتر - دون صيانة بشرية. إتقان هندسي جعل آلة من السبعينيات تعمل في أقسى بيئة كونية.

- **المرأة التي هزّت قوانين الفيزياء:**

العالِمَةُ الصينيةُ الأمريكيةُ وو تشين شيونغ (Wu Chien-Shiung) غيّرت وجهَ الفيزياء بتجاربها بالغة الدقة. قال العلماء عنها: «لم تخطئ في تجربةٍ

واحدة». أثبتت أن الطبيعة لا تحفظ التناظر الكامل، في اكتشافٍ أحدث ثورة في فهم الجسيمات الذرية.

- **جراحة ٥٢٨ عملية قلبٍ بلا خطأ:**

الدكتور لارس سفينسون (Lars Svensson) أجرى على مدى عشرين عامًا ٥٢٨ عملية دقيقة لاستبدال جذر الشريان الأورطي مع الحفاظ على الصمام الطبيعي، دون وفاة جراحية واحدة. إتقانٌ يلتقي فيه العلم بالضمير، والمهارة بالرحمة.

- **مطار بلا حقيبة ضائعة منذ ثلاثين عامًا:**

مطار كانساي الدولي (Kansai International Airport) في أوساكا (Osaka) لم تُفقد فيه حقيبة واحدة منذ افتتاحه. السرّ في الانضباط قبل التقنية، وفي ثقافة ترى أن النظام احترامٌ للإنسان.

- **الطائرة التي حلّقت فوق الخطر:**

الطائرة أس آر-٧١ بلاك بيرد (SR-71 Blackbird) بلغت سرعتها ٣,٢ ماخ، ولم تُصَب قط؛ إذ كانت سرعتها تفوق أي صاروخ أُطلِق نحوها. إتقانٌ هندسي بلغ حدَّ الأسطورة.

الإتقان.. حين يصبح الفرد دولة

- **جينسين هوانج (Jensen Huang)**

مواليد ١٩٦٣، من تايوان (Taiwan) — وتايوان جزيرةٌ فقيرةٌ ضعيفةٌ، كان نصيب الفرد فيها ٣٠٠ دولار سنويًّا. لكنّ إتقانه جعله يُسيطر على ٨٠٪ من سوق رقاقات الذكاء الاصطناعي العالمية. اليوم، لا تستطيع دولةٌ عظمى أن تبني ذكاءً اصطناعيًّا متقدمًا دون معالجات شركته إنفيديا (NVIDIA). فردٌ واحد أصبح بوابة التقنية للعالم أجمع.

- **إيلون ماسك (Elon Musk)**

مواليد ١٩٧١، جنوب إفريقيا (South Africa) — دولةٌ معزولةٌ دوليًّا في ظل نظام الأبارتهايد، بعيدة عن مراكز التقنية العالمية. لكنّ إتقانه جعله يُغيّر مسار حروب. في الحرب بين روسيا وأوكرانيا، أقماره الصناعية ستارلينك (Starlink) حدّدت نتائج المعارك وأثّرت في مصير دول.

ولم يقتصر تأثيره على التقنية والعسكر؛ بل تجاوزه إلى المعركة الفكرية. فبعد استحواذه على تويتر (Twitter) المعروف الآن بـ إكس (X)، حوّله منبرًا عالميًّا يواجه التيارات المتطرفة. وصفه الرئيس الأرجنتيني خافيير ميلي (Javier Milei) بأنه: "بطلٌ في تاريخ الإنسانية" لمواجهته فكر الووك (Woke).

ورغم اختلافنا التام مع عقيدته وأفكاره، إلا أن دفاعه عن الهوية الفطرية بين الذكر والأنثى يتوافق مع الفطرة السليمة.

فالإتقانُ التقنيُّ يمنحك القوة، وامتلاكُ المنبر يمنحك التأثير. فردٌ واحدٌ يُغيّر مسار الحروب ويُشكّل النقاش العالمي، حتى كان رمزًا خطابيًّا في الانتخابات الرئاسية الأمريكية نوفمبر ٢٠٢٤.

الأحزاب والتنظيمات: شعارات وأدبيات وخطابات بلا إنتاج

هذان المثالان: جينسين هوانج (Jensen Huang) وإيلون ماسك (Elon Musk) يكشفان حقيقةً مُرّة غابت عن خطاب الأحزاب السياسية والتنظيمات في الوطن العربي التي تسعى للوصول إلى تشكيل القرار السياسي، بمختلف توجهاتها وأسمائها وألوانها:

• الأحزاب القومية العربية بشعاراتها الرنانة عن الوحدة والقومية، استنزفت عقودًا في المؤتمرات والبيانات والأدبيات والأشعار والخطابات وجمع التبرعات، دون إنتاجٍ علميٍّ يُذكر.

• الأحزاب الإسلامية بخطابها الحماسي، أفنت طاقات الشباب في التنظيم والحشد والانتخابات وجمع الصدقات والأناشيد، دون بناء كفاءاتٍ تقنية تُنافس عالميًّا.

وغاب عنها جميعًا درسٌ حاسمٌ — يبدأ من الأفراد قبل الدول — في بناء القوة المادية:

أن الفرد المُتقن المنتج يصنع ما تعجز عنه الدول.

فهذه الأحزاب والتنظيمات لا تلتفت إلى الإتقانِ والعلمِ والإنتاجِ منهجًا للقوة الدنيوية، بل ظلّت أسيرةَ دوائرها المغلقة: بتنظيم الصفوف، وصياغة الشعارات، والتنافس على الانتخابات، وجمع الصدقات والأتباع.

بينما كان العالم يتقدّم بأفرادٍ مُتقنين حوّلوا إبداعهم الفردي إلى قوةٍ حضاريةٍ تُشكّل مصير الأمم.

الفقرُ والضعفُ ليسا عذرًا

ليس الفقرُ عائقًا، ولا ضعفُ الدولة مبررًا للعجز. فكم وُلد أفرادٌ في بيئاتٍ فقيرة ودولٍ محدودة الموارد، فحققوا بتوفيق الله ثم إتقانهم ما عجزت عنه دولٌ غنية ذات مؤسساتٍ عريقة. الفقر يُضيّق الوسائل لكنه لا يُطفئ الفكرة، وضعف الدولة يحدّ من الفرص لكنه لا يمنع بروز العقول إذا وفّقها الله وسدّدها.

حاولت وكالة NASA منذ السبعينيات تطوير صواريخ قابلة لإعادة الاستخدام، غير أن برامج مثل Space Shuttle لم تُحقق إعادة الاستخدام

الكاملة. ثم جاء ابنُ جنوب أفريقيا إيلون ماسك (Elon Musk) عبر شركته SpaceX، فحقق بتوفيق الله في ٢١ ديسمبر ٢٠١٥ ما عجزت عنه وكالات الفضاء الحكومية لعقود؛ إذ عاد صاروخ Falcon 9 وهبط عموديًّا ليُعاد استخدامه، في إنجازٍ خفّض تكلفة الوصول إلى الفضاء خفضًا جذريًّا.

فالإتقان يحتاج إلى:

- عقلٍ يرفض الحلول السهلة.
- يدٍ تُنجز بإحكامٍ لا بسرعة.
- روحٍ لا تستسلم للعوائق.
- نظرةٍ تتجاوز المكاسب العاجلة.

وهكذا يُحيي اللهُ بفردٍ مُتقنٍ ما عجزت عنه دولةٌ عظمى بكل رجالها وأموالها ومؤسساتها، طوال أكثر من نصف قرن.

المثال الصادم: ألمانيا

ألمانيا — موطن Mercedes وBosch — تفقد صدارتها التقنية.

لماذا؟

ليست أزمة مال، بل أزمة عقل محافظ. لم ترفض ألمانيا الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence)، لكنها لم تجعله مشروعًا سياديًّا كما فعلت أمريكا والصين. تعاملت معه بعقل الدولة الصناعية القديمة، ورأت فيه أداة تحسين لا قوة تغيير، فقدّمت التنظيم على الجرأة، وخنقت الحركة باسم حماية النظام.

النتيجة؟ خوف مبكر من المخاطر قبل تحقيق المكاسب. فجوة قاتلة بين البحث والتطبيق التجاري. كما تقول التقارير: "تنتج أبحاثًا ممتازة... ولا تنتج شركات عملاقة".

وبحسب المجلس الألماني للخبراء الاقتصاديين ٢٠٢٤: انكماش حاد في الإنتاج والتنافسية رغم نمو الاقتصاد العالمي. وتشير دراسة OECD 2025 إلى تراجع الابتكار والإنتاجية. الخلاصة: إفلاس ٢٤ ألف شركة، ودين عام بلغ ٣,١٤ تريليون دولار.

إنها أزمة توقف، لا أزمة موارد.

الدولة التي علّمت العالم الدقة انفصل فيها العلم عن السوق، وفشل ربط الجامعات بالصناعة، وأثقلتها التشريعات المعقدة. العلم بلا جرأة إنتاجية = معرفة راكدة. والمعرفة الراكدة لا تصنع قوة.

والجواب — عن سبب التقدّم والتراجع — بعد توفيق الله:

عقيدة راسخة + علم متجدد + إتقان منهجي + إرادة لا تلين + إنتاج متواصل = القوة.

العلم والإتقان لا يكفيان إذا توقفا عن التجدد. ومن يقف يومًا.. يتراجع أعوامًا.

حين تعجز الرادارات المستوردة: شهادةٌ من ميدان المعركة

من أرض المعركة، يشهد رئيس الوزراء القطري حفظه الله (٩ سبتمبر ٢٠٢٥) بقوله:

"الدفاعات الجوية القطرية تعاملت بدقة مع موجة الصواريخ الإيرانية، لكن العدو الإسرائيلي استخدم أسلحة لم ترصدها راداراتنا".

ويبقى السؤال الحاسم: لماذا؟

هل لأن هذه الصواريخ تملك تقنية إخفاء متقدمة تُعجز الرادارات المستوردة؟

أم لأن المُصنّع — طالما مفاتيح التحكم التقنية بيده — قادر على تعطيلها عن بُعد؟

أم لأن الكيان الصهيوني نفسه يملك قدرات حرب إلكترونية تُعطّل الرادارات مباشرة؟

الإجابة غير حاسمة، لكن الاحتمالات الثلاثة تؤكد حقيقة واحدة: امتلاك الرادارات المستوردة لا يعني امتلاك مفاتيح التحكم والسيطرة الكاملة عليها

دعوتُنا اليوم

- **في التربية والتعليم:** بناءُ جيلٍ راسخ الإيمان بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابُه، يُتقنُ العلومَ التطبيقية المُنتِجة — لا حفظًا نظريًّا بلا ثمرة ولا إنتاجٍ معتبَرٍ عالميًّا.
- **في الصناعة والخدمات:** امتلاكُ التقنية وإنتاجها عالميًّا — لا مجرّدُ استيرادِها واستهلاكها.
- **في المؤسسات والشركات:** ثقافةُ الانضباطِ والجودة والحزم — لا العشوائية والارتجال.
- **في الفكر والتبصُّر:** رؤيةٌ طويلةُ المدى — لا حلولٌ مؤقتة ومكاسب سريعة ولغة حماسية كاذبة.
- **في الثقافة والذات:** أصالةٌ حيّةٌ مُنتِجةٌ ومتجدّدة — لا تقليدٌ أعمى للغرب ولا جمودٌ إنتاجي يُلبَسُ ثوبَ الأصالة.
- **في الأفراد والإرادة:** إيمانٌ بأن الفرد المُتقن المنتج يُغيّر العالم — لا انتظارٌ لمعجزةٍ جماعية.

عنوانُ المسيرة: الإتقانُ ليس ترفًا، بل ضرورةُ بقاء

لقد أقام الله تعالى هذا الكون على الإتقان، فقال تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. وأرشدنا النبيُّ ﷺ إلى هذا النهج بقوله: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحدُكم عملًا أن يُتقِنَه»، وقوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ».

ومَن كان يومُه كأمسِه فهو مغبون، والذُّلُّ كامنٌ في الدَّعَة. فالأممُ التي تُتقنُ العلمَ والإنتاجَ تسود، والأممُ التي تتراخى تُستضعَف ثم تُهان.

كتبه:

محمد عثمان العنجري

الأحد ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ

الموافق ١٤ ديسمبر ٢٠٢٥م

نُشر في جريدة "الجريدة" - العدد (٦١٢٠)